الفصل الخامس

حقـــــوق الوالديـــــن

- قال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ .
- قال ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، قالوا بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين » .
- قال الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود : «يجب أن يعلم كل فرد أن كل جماعة لا يكون لها عاقلة لا تجد الراحة والهناء وعاقلة كل عائلة الوالدين» .
- يقول الصحفي الأمريكي جاري واندر GARY WANDER : « من خلال معايشتي للمسلمين اكتشفت العلاقة الرائعة بين أفراد الأسرة المسلمة ، وتعرفت كيف يعامل الآباء المسلمون أبناءهم ، وعرفت العلاقة الوثيقة التي تربط أفراد الأسرة المسلمة » .

حقـوق الوالديـن

لوعدنا قليلاً إلى موضوع حقـوق الإنسان قبل ا لميلاد لنتذكر أن المكلفين بأداء تلك الحقـوق هم الزوج والزوجة أي الوالدان. فكمـا أوجب الإسلام على الوالدين أداء حقوق أبـناءهم قبل ميلادهم وخـلال حياتهم، فقـد أوجب أيضاً على الأولاد واجبـات تؤدى نحو والديهم التي هي جـزء من حقوقـهما، فالـوالدان هما من بني جلدة الإنسان من البشر من عـباد الله وخلقه وحقوقهم كبيرة وواجـباتهم متعددة، ولقد نقص تضـمين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان حقوق أناس أدوا حقوق غيرهم فَنُسيَتَ حـقوقهم وهما الـوالدان خصوصاً عندمـا يبلغان الكبر ويكونان في حـاجة إلى رعاية أولادهم وليس رعايتهم في دور المسنين والكبار، ورعاية الأبوين عند كبر سنهم من أسمى مبادىء السلوك الإنساني وهو واجب إسلامي وحق إنساني، وهذا هو الفرق بين نظرة الإسـلام إلى الوالدين ونظرة القوانين الوضـعية والشـرائع الزائفة إليهمـا. ولهذا نصت المادة السابعـة من إعلان القاهرة لحقوق الإنـسان في الإسلام على مـا يلي: « للأبويـن على الأبناء حـقـوقـهـما ولـلأقارب حـق على ذويهم وفق الشريعة الإسلامـية»، ولهذا لا يقال أن الحديث عن حقـوق الأبوين ضمن المبادىء الحقـوقية الإنسـانية لا يمكن أفـراده أو تخصيـصه ضمن جـملة الحقـوق في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، لأن تلك الحقوق وضـعها أو تركها لا يترتب على الإخلال بها مساءلة دنيوية وبالتالي عقوبة نظـامية ، قد يكون هذا صحيح من البعد الفكري العلماني والنظرة الفكرية القاصرة وليس الأمر كـذلك في الرؤية الإسلامية، ثم ماذا يقال عمـا استدركتـه النظرة الحقوقيـة في المفوضية السـامية لحقوق الإنسـان عندما اعدت خطة لرعاية المسنين ووقعت الجمعية العامة للأمم المتحدة عليها عام ١٩٩١م وعـرفت: «بمبادىء هيـئة الأمم المتـحـدة لكبار السن» مما سـنتحـدث عنه لاحقـاً في الفصل التاسع من هذه الموسوعة ، فالمسنـون في تلك المبادىء معظمهم أباء وأمهات

وإن نظر إليهما على أنهما مسنين فذاك لا يسقط عنهما صفة الأبوة والأمومة، بل أن الفقرة الخامسة من ديباجة العهدين الدوليين لحقوق الإنسان المدنية والسياسية أشارت بصورة غير عامة مختصرة إلى حقوق الوالدين مما جاء ذكره في الفقرة الأولى من المادة التاسعة والعشرون من ميثاق هيئة الأمم المتحدة والتي تنص على واجبات الإنسان نحو والديه : «كما أن عليه احترام والديه في كل وقت وإطعامهما ومساعدتهما عند الحاجة»، ولكن كل هذه الأفكار لم تفسر حقيقة الحفاظ على حقوق الأبوين وبرهما مما هو مبين في التنظيم الحقوقي الإسلامي الذي يشير إلي المساءلة الدنيوية والعقوبة الاخروية، **وإننا في هذه الموسوعة وفي هذا الباب وفي غيره لا نتحدث عن مفهوم حقوق الإنسان على العموم من وجهة النظر العلمانية، بل نتحدث عن حقوق الإنسان في الإسلام**، وهذا يسقط حجة القائل بأن الحديث عن حقوق الوالدين لا يتفق مع التعريفات المعروفة والمشهورة عن حقوق الإنسان ، فهل يغفل الحق الكامل في الإسلام لأخذ جزئية الحق في غيره؟ وأنه لخطأ فاحش أن يقال أن الحديث عن حقوق الوالدين لا يتمثل في الثواب الذي ينشده الإنسان من برهما ، إن الأمر في الإسلام أكثر من ذلك لوجود المساءلة والعقوبة الدنيوية وكذا العقوبة الأخروية، فلو سب شخص مثلاً والد شخص آخر عزّر الشاتم ففي ذلك مساءلة وعقوبة دنيوية ، ولو فرط ابن في حياة والده أو والدته وتسبب في وفاتهما ولو خطأً إهمالاً منه حرم الإرث فهذا فيه مساءلة وعقوبة، كل ذلك لعظم منزلة الأبوين كما جاء في الحديث قوله ﷺ : « **لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه**» ، وكذا ما ورد في الحديث الذي سأل فيه السائل الذي كان يحمل أمه في الطواف فقال للنبي ﷺ : «**لعلي أديت حقها؟ قال ولا بزفرة واحدة**»[1]، فورود كلمة (حق) دل على ثبوته نصاً وحكماً، وسوف تسألون، فمساءلة الضمير أشد من مساءلة القانون وعقوبته، وتعاليم الإسلام إنما هي قيم إنسانية وتشريعات إسلامية قبل أن تكون قواعد عقاب وثواب، ولعل قراءة واعية متبصرة من بُعد

حقـوقي وفقـه وفهـم لآيات القـرآن الكريم وأحاديث النبي الرؤوف الرحـيم في هذا المبحث سـتؤدي إلى بيـان أهميـة تضمين الإعلان الـعالمي لحقـوق الإنسان حـقوق الوالدين، وأن انتهاك تلك الحقوق في الإسلام يترتب عليـها مساءلة نظامية وعقوبة جزائية من رب العالمين، فأيهما أعظم عقوبة القانون أم عقوبة الله رب واضعي القانون ورب العاق الذي تعـجل له عقوبة عـقوقة في الـدنيا مع ما يدخـر له في الآخرة من عقاب؟ وقد أدرك الكاتب والـصحفي الأمريكي **Gary Wander** مكانة الوالدين في الإسلام وعـبر عن ذلك بقوله: « من خـلال معايشـتي للمسلمين اكـتشفت العـلاقة الرائعة بـين أفراد الأسرة المسلمـة، وتعرفت كـيف يعامل الآباء المسلمـون أبناءهم ، وعـرفت العلاقـة الوثيقـة التي تربط أفـراد الأسرة المسلمـة»[٢] ، ثم إن الحديث عن حقوق الـطفل جزئية تستلزم إكـمال ببيان حـقوق من تسببـا في وجود هذا الطفل بعد الله عز وجل فالطفل وأبواه طرفين في معادلة واحدة.

والوالدان عند كثيـر من الناس لا يعتبران إلا آلة أو أداة للإنجاب ووسـيلة للتربية والتعليم لولدهما من ساعة ميـلاده حتى بلوغه سن الرشد أو سن البلوغ، ثم يتوقف أداء هذه الآلة وتنقطع حبال الصلة والوصل العـائلي والاجتماعي بين الأولاد ووالديهم، (تلك الصلة التي أقـامها الإسـلام وأمر باستـمراريتهـا حتى الممات صـلة تقوم على المودة والرحمة والمحبة والرأفة والرعاية الإنسـانية)، فتأخذ صورة الوصل والصلة بين الوالدين والأولاد كفاية بطاقات التهنئة في الاعياد والمناسبات أو عبر الرسائل البريدية أو الالكترونية أو خلال المحادثات الهاتفية، وانقطاع صلة الأبناء بالآباء سببه إفرازات الحـضارة المـادية التي فصـلت الدين عن الدنيـا أو فصلـت الدين عن الدولة، وهذه الافرازات وجدت سـبيلها وانعكاساتهـا عند إعداد مشروع الإعلان العـالمي لحقوق الإنسـان من منظورها العلمـاني وفكرها المادي فـجاء النقص بـيِّناً في عـدم إظهـار حـقـوق الوالدين والإهتـمـام بهـا ضـمن مـواد الإعـلان لأن رعاية المسنين ومنهم الوالدين في كثير من الدول هي من مسئولية الحكومات فحسب .

والأمر على العكس في دين الإسلام، إذ يؤمن المسلم بحق الوالدين عليه وواجب برهما وطاعتهما والإحسان إليهما لا لكونهما سبب وجوده فحسب ، أو لكونهما قدما له من الجميل والمعروف ما وجب معه مكافأتهما بالمثل ، بل لأن الله عز وجل أوجب طاعتهما ، وكتب على الولد برهما والإحسان إليهما حتى قرن ذلك بحقه الواجب له من عبادته وحده دون غيره، فقال عزوجل :﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾[٣]، إن هذه الآيات الكريمات تلقي الضوء على حقوق الإنسان ذكراً كان أم أنثى رجلاً كان أم امرأة، وقمة هذه الحقوق توجت في أصل الإنسان وهما الأبوين بعد حقوق الله عز وجل وحقوق أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهي أصل الحقوق الانسانية التي تتفرع منها بقية الحقوق الأخرى، فمعرفة حقوق الوالدين كما حددت في المرجعيه الإسلامية في القرآن الكريم وأقوال الرسول الرؤوف الرحيم محمد ﷺ تجعلنا نمعن النظر في تلك النواقص التي كان من المهم وضعها ضمن مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وإظهارها وبيانها والاحتفاء بها، لقد ابتدأ المولى جل وعلا الآيات السابقات وربط أهمية توحيده بالالوهية وتفرده بالعبادة بواجب بر الوالدين فهو أمر بتوحيد المعبود بعد النهي عن الشرك، إنه أمر في صورة قضاء، فهو أمر حتمي حتمية القضاء يفيده النفي والاستثناء بقوله تعالى: ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾، فتبدو في جو التعبير كله ظلال التوكيد والتشديد، فبعد قاعدة الأساس وهي التوحيد تأتي أمور التكاليف الشرعية، فالرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة والتوحيد هي رابطة الأسرة، ونواتها الوالدين وما لهما من حقوق، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾، فيستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء ، ذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالإحياء،

توجه اهتمامهم القوي إلى الأمام إلى الذرية، إلى الناشئة الجديدة ، إلى الجيل المقبل فتحرك وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات[٤].

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكل شيء حتى بالنفس والنفيس وهما سعيدان ، أما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام إلى الزوجات والذرية. وهكذا تندفع الحياة ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء، وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد التأكيد على عبادة الله وحده، ثم ينظر المتأمل جو الآيات الكريمات وما يحمله من رقيق المعاني بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان فيقول سبحانه وتعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾ ، والكبر له جلاله ، وضعف الكبر له إيحاؤه ، وكلمة ﴿عِندَكَ﴾ تصور معنى الالتجاء والاحتماء في حالة الكبر والضعف، وقوله تعالى: ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾، وهي أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب والحقوق بألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضيق وسوء الأدب، وقوله تعالى : ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾، تلك مرتبة حقوقية تلزم الولد بالإكرام والاحترام، وقوله جلا وعلا: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، وهي لشغاف القلب وحنايا الوجدان فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عينا، ولا يرفض أمرا. وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام، وقوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾، فهي الذكرى الحانية، ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الوالدان، وهما اليوم في مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان، وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء[٥]، عن بريدة عن أبيه : «**أن رجلاً كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبي ﷺ هل أديت حقها؟ قال : ولا بزفرة واحدة**»[٦].

ثم إن الله سبحانه وتعالى يوصي الأبناء بالآباء فيقول جل جلاله: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ

الْمَصِيرُ﴾[٧]، وقال الرسول ﷺ للرجل الذي سأله قائلا: من أحق بحسن صحبتي؟ **قال: «أمك. قال : ثم من؟ قال : أمك. قال : ثم من؟ قال : أمك . قال : ثم من؟ قال : أبوك»**[٨]، وقال ﷺ :**«إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنع وهات ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال، وإضاعة المال»**[٩]، وقال ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يقولها حتى قال: أبو بكرة قلت ليته سكت»**[١٠]، وقال ﷺ: **«لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه»**[١١]، وجاء رجل إليه عليه الصلاة والسلام يستأذنه في الجهاد فقال: **«أحي والداك؟ قال نعم ، قال ففيهما فجاهد»**[١٢] ، لعظم حقوق الوالدين، ويروي أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله هل بقي عليّ شيء من بر أبوي بعد موتهما أبرهما به؟ **قال: نعم، خصال أربع : الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما ، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما»**[١٣].

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، إن الله سبحانه وتعالى أمر عباده بعبادته وحده لا شريك له، وقد قرن جل جلاله بعبادته بر الوالدين، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وأمر بالوالدين إحسانا، كقوله في الآية الأخرى، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾، أي لا تسمعهما قولا سيئاً حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ، ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾، أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾، أي لا

تنفض يدك عليهما ، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح ، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن ، فقال: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾، أي ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم ، ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾، أي تواضع لهما بفعلك ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾، أي في كبرهما وعند وفاتهما[١٤].

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة ، منها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال: **« آمين آمين آمين »** ، قيل يا رسول الله علام ما أمنت؟ قال : **«أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل : آمين، فقلت آمين، ثم قال : رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له ، قل : آمين، فقلت آمين، ثم قال : رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل آمين، فقلت آمين»**[١٥]، وقال النبي ﷺ : **« من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك ، فأبعده الله وأسحقه »**[١٦]، وعن معاوية بن جاهمة السلمي أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال: **« فهل لك من أم » قال: نعم ، قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجليها»**[١٧]، ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى قال كمثل هذا القول، وعن خالد بن معدان عن المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال: **«إن الله يوصيكم بآبائكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب»**[١٨]، وعن رجل من بني يربوع قال: أتيت النبي ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: **«يد المعطي العليا ، أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك أدناك»**[١٩] .

والمسلم إذ يعترف بهذه الحقوق لوالديه يجب أن يؤديها كاملة طاعة لله تعالى وتنفيذاً لوصيته جل شأنه، وتتجلى عظمة الإسلام في حفظ حقوق الإنسان إزاء الوالدين حتى وإن لم يكونا مسلمين، وهذه دلالة عظيمة على عدم التمييز الديني في حقوق الناس إذ لكم دينكم ولي دين، وإلزام الابن المسلم أو الابنة المسلمة بحفظ

حقوق والديهم غير المسلمين تنبع من المفاهيم الإنسانية والحقوقية في شريعة الإسلام، فالإسلام له وصاياه العظيمة التي لم تعرف في دين أو نظام أو قانون يحمل هذه الدقة الحقوقية فيبين القرآن الكريم حقوق أقرب الأقربين الوالدان وإن كانا غير مسلمين لما لهما من الفضل والحق ولما لهما واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة وما عاناهما نحو أبنائهما في طفولتهم.

وهنا نرى لقمان وهو يوصي ابنه ويحثه على ذروة الخير المتعلقة بتوحيد الله وما ارتبط بهما من بر الوالدين وإن كانا غير مسلمين فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٢٠]، فبينت الآيات الكريمات أن الصلة الحقيقية في الاجتماع الإنساني هي الصلة في الله، وهي أحق الحقوق وأعلاها وأسماها وما سواها دون ذلك، والرابطة في الله هي العروة الوثقى ولكن الاختلاف في الدين والعقيدة والأمر بعدم الطاعة في خلافها لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة : «إن وصية لقمان لولده وصية الوالد الحكيم الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف، ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ثم قال محذراً له: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾، أي هو أعظم الظلم، ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين ذلك في القرآن، وقال ههنا : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، وإنما يذكر الله تعالى عناء الوالدين وتربيتهما لأبنائهم وخصوصاً الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً ، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، ولهذا قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ

لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، أي فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء . ولكن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولهذا وجوب بر الوالدين قائم ومستمر حكماً وعملاً في شريعة الإسلام، ولكن ليس بالشرك بالله لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، أي إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي محسناً إليهما»[٢١]، قال الطبراني في (كتاب العشرة) عن داود بن أبي هند أن سعد بن مالك وقيل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما قال : أنزلت فيّ هذه الآية : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ، قال: «كنت رجلاً بَرّاً بأمي، فلما اسْلَمَتْ قالت : ياسعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي، فيقال : ياقاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء فمكثت يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي، فأكلت»[٢٢]. هذه طريقة بعض غير المسلمين الذين لا يرضون لأحد أن يكون حراً في اختيار دينه بل يكروهونه على ترك ما يجب أن يدين به الله ويعبد من دون الله الذي لا يملك نفعاً ولا ضرّا ولا بعثاً ولا نشورا وهو في حاضرنا مشهود ملحوظ خصوصاً مع القوم الذين ينادون بحقوق الإنسان من جهة ويدفعون المجرمين والإرهابيين لقتال المسلمين لأنهم أسلموا لله رب العالمين ، تلك موازين مختلفة ومختلة في قضايا حقوق الإنسان.

هكذا إذاً تنقطع روابط النسب والصهر والدم لأنها روابط دنيوية عارضة غير أصيلة وتبقى رابطة العقيدة لأنها دينية دنيوية أخروية فهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها. ولكن الإسلام حفظ حقوق الوالدين غير المسلمين كما بينتها الآيات الكريمات والأحاديث الشريفة السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ

الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٢٣].

ومناسبة نزول هذه الآية ما جاء عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيت النبي ﷺ فقلت يارسول الله : إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال: **«نعم صلي أمك»**[٢٤]، وعن عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبيه قال : «قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وقرظ وسمن وهي مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها، فسألت عائشة النبي ﷺ ، فأنزل الله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها»[٢٥]. وقد ورد ذكر الوالدين فيما يزيد عن عشرين موضعاً في القرآن الكريم وفي كثير من أقوال النبي محمد ﷺ وفيها بيان حقوق الوالدين وكذلك في مصنفات العلماء والفقهاء والحقوقيين وغيرهم.

إن كثيراً من غير المسلمين كما يبدو في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان لا يهتمون بحقوق الوالدين كما هو الحال في الشريعة الإسلامية مما عرضنا إليه آنفاً خصوصاً مع الوالدين غير المسلمين ، فبرغم أن الإسلام اعتمد الدين على أنه الصلة الأولى بين العباد وأظهرها توحيد الله وطاعته واتباع شرعه وأداء حقوقه، وبرغم أن الإسلام جعل وشيجة الدين والعقيدة هي الرابطة الحقيقة بين الناس وخصوصاً الوالدين، إلا أنه أكد إنسانياً على الرابطة الأسرية في أمور الدنيا مع الوالدين من حسن الصحبة وكرم المعشر وأدب السلوك والتقدير والاحترام وإن اختلف الدين.

ومع ارتفاع الصيحات المنادية بحقوق الإنسان واحترامها ، لم يهتم الكثير بحقوق الوالدين في جانبها الروحي والإنساني والإسلامي ولا حتى بتلك الحقوق الدنيوية التي دعا إليها الإسلام . فكم من دور المسنين ومستشفيات كبار السن والعجزة

والمستشفيات الخاصة بالمرضى من كبار السن لدى بلاد كثيرة من غير بلاد المسلمين تضم الآباء والأمهات وليس من أحد يسأل عنهم ويتفقد حالهم ويخفض لهم جناح الذل من الرحمة؟ وكم من الملاجئ فيها أمهات وآباء يرزحون تحت قسوة المعاملة من القائمين على تلك المؤسسات لأنهم مأجورون، يقول الصحفي الأمريكي جاري واندر: «كما أعجبت بالمكانة التي يتمتع بها كبار السن بين المسلمين، وفي الوقت الذي أجد فيه كبار السن في الغرب وفي بلادي أمريكا قمة الحضارة الغربية المادية المعاصرة يلقى بهم في مؤسسات العجزة ، وينبذون فلا يلتفت إليهم أحد، أجد الجد والجدة المسلمين في مركز الأسرة وبؤرتها من حيث الحفاوة والتكريم لقد أحببت ذلك كثيراً»[٢٦].

كم يتلوى الكثير من الأمهات والآباء حسرة على فراق أولادهم وبعدهم عنهم، كم يتألم الآباء والأمهات من لسعات الحرمان في رؤية أبنائهم، وصدق الرسول الكريم ﷺ حيث قال: **«برروا آباءكم تبركم أبناءكم»**[٢٧]، فيا أيها القائمون على تطبيق الجوانب الحقوقية في الإعلان العالمي تعالوا نعمل على تحقيق العالمية مع الشمولية والخصوصية في هذا الجانب، فإن أردنا أن نبرز عالمية هذا الإعلان وجب إكمال نقصه بالمواد التي تقويه وتسنده مما ذكرناه ونذكره من نواقص، فمن المناسب تضمين الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مادة عن حقوق الوالدين، كما جاء في إعلان القاهرة لحقوق الإنسان في الإسلام في الفقرة ج من المادة السابعة وتنص على أن: «للأبوين على الأبناء حقوقهما». ويمكن أن تكون المادة التي تضاف إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بهذا النص أو مثله: «الوالدان إنسانان تؤدى حقوقهما من أبنائهم عند حاجتهم وكبر سنهم لما ضحيا به عند تربية أبنائهم، وذاك ليس رد جميل أو معروف، بل أنه واجب شرعي وأمر إلهي يتحقق معه العدل والانصاف والقسط قياماً بحقوقهما». وبهذا تحفظ حقوق هذه الفئة من الناس دون ظلم أو غمط للحقوق وسيأتي مزيد بيان عند حديثنا عن حقوق المسنين في هذه الموسوعة.